

القصص

قصة مصرية

الشيخ عبد الباسط يتزوج ... للأستاذ محمد علي غريب

ويستفسر من زملائه الذين سبقوه عن مواعيد الدراسة وعن كراء البيت حتى ذكر خطاب سيد والده الغني ، فأخرجه من جيبه بوقار وخشوع وراح يسأل عن هذا العنوان :

— جاردن .. جا .. جار .. دن .. جاردن ستي .. أى عنوان هذا ؟ .. محمد بك الخربوطلي بمجاردن ستي !
وتضاحك زملاؤه الخمسة من جهل صاحبهم بأحياء القاهرة وهم الذين يعرفونها حيا حيا .. وراودت النكتة اللفظية أحدهم عن نفسه فأطلقها :

— ستي والاستك .. هاها !
وتضحك الجميع حتى الشيخ عبد الباسط عن طيب خاطر ..

يعيش محمد بك الخربوطلي في منزل يضم فتياته الثلاث (صفية وحكمت وآمال) وكلهن جاوزن سن الزواج . ولما كان الأب فاجراً متهكاً فقد نصح فتياته على منواله ، لذلك وجدت كل واحدة منهن أصدقاء كثيرين ولكنها لم تجد زوجاً إلى اليوم وكان محمد بك رجلاً في حدود الخمسين ؛ وقد توفيت زوجته في حادث مؤلم ، فراح ينسى الدنس الذي علق بشرقه بالافراط في كل ما يستثير شهواته الخسيسة ، ولم يكن في برنامجه أن يحتفل بتربية بناته بل تركهن في أيدي الظروف

في يوم من أيام الربيع الصافية ، وقف الشيخ عبد الباسط ومعه زملاؤه الخمسة الذين تطوعوا بتعريفه منزل السيد ، يصفق يديه على باب المنزل ، ويمسح المرقق التصبب من جبينه بطرف جيبته الخضراء ، على حين جلس زملاؤه فوق المقعد الخشبي الذي يجلس فوقه حارس الباب وهم يلهثون

وجاء البستاني العجوز وهو ييضق الشتائم والاهانات من فمه ، فقد أزعجه هذا الذي يصفق دون أن يسكت ، ثم سأله :

— ماذا تريد ؟

بين الأزهر وبين القرية ، يولد طالب العلم كل يوم مرة على تجارب لم يشهدها وحياة لم يألفها ، في تلك المدينة التي يمتحن صوت المؤذن فيها بصيحات المريرين الفجار ، والتي لو بث فيها اليوم منشئها الأول جوهر الصقل لما وجد فيها مكاناً يأوي إليه ، ولأثر عليها مناداة منكر ونكير ...

ويوم غادر الشيخ عبد الباسط محمد حسين أبو جيل قريته الصغيرة لينتسب إلى الأزهر ، كان أكثر أهله في وداعه ، وقيل أن يملن القطار ضجره من الانتظار بصغيره المزعج ، انتحى به والده ناحية منزلة وأوصاه بالصلاة والمذاكرة وطاعة شيوخه واحتقار ملذات الدنيا الفانية

ثم دس الرائد في يد ولده خطاباً علت غلافه بصيات أصابعه المغمورة بالتراب ، وطلب منه أن يقدمه إلى سيد القرية في القاهرة وهو رجل من الأثرياء علك أكثر أرض هذه البقعة وينظر إليه الأهلون كأنسان لم يخلقوا على طرازه ، فلا بدع أن يتخذوا منه السيد والمولى ، وأن يخشوا غضبه كما يخشى العابد غضب الآله وحل الشيخ عبد الباسط في غرفة مظلمة في حي الباطنية بالقرب من الأزهر ، وحل معه فيها خمسة من الطلاب ومجموعة من الموام والحشرات كانت تشارك أهل هذا الكهف طعامهم وشرابهم ، وتخفف الدم النقي من جوسهم فلا يشمرون بالحاجة إلى معصية الله ...

ولم يكذب يضع عبد الباسط رحله ، ويؤدي الصلاة المكتوبة ،

التي زورها ليلتي بها في هذا المقام
وقال السيد وهو يبيت بلقافة تبغ في أصابعه :
— كيف والدك ؟ ... هل بمث ممك مالا ؟ .. كيف
أنت ؟ .. اجلس .. هل تدخن ؟ ...

وماتت الاجابة على هذه الأسئلة كلها فوق شفتي الشيخ
عبد الباسط فلم ينطق وإن كان قد جلس على حافة المقعد وربته
ممتدة وبده العابثة بلحيته ترتش
وجاءت القهوة ، فشرب نصف ماني الفنتجاة ، وضمخ بالنصف
الأخر ثيابه من الدهشة والخوف . ومرت به العتاة التي رآها
حينذاك وهي تنفي ، فربكه مرآها واختل توازنه فوق حافة
المقعد وهوى على الأرض ؛ ومن ثم ضحك السيد والفتاة والخادم
الواقف بقرب الباب ... وضحك الشيخ عبد الباسط أيضا !

وكثر تردد الشيخ عبد الباسط على منزل السيد ، وفي المرات
الأولى كان ظله ثقيلاً على نفوس أهل المنزل ؛ فلما كشف عن
سذاجته وألح في الزيارة استمطابوا وجوده . وكان في كل يوم
يكشف عن أسماء النفائس التي يراها في المنزل فيحفظها كما يحفظ
ألفية ابن مالك ؛ ولم يكن يبالي السخرية به والتهكم عليه ، فان
السيد وما ملكت يده لسيدته ؛ وكان يؤثر على الجميع الفتاة التي
تنفي ، وكانت هي من جانبها تزيد في الاساءة اليه فيحسب أن
يده تقبض على قلبها

ولم يمد الشيخ عبد الباسط يده يمد يده ، لا ولا بصلاواته .
أما زملاؤه فقد أنكروا عليه هذا الاهمال ، وتوعدهوا بالخزي في
الدنيا والآخرة . غير أنه كان يتمثل في وجوههم شقوة البؤس ،
فلم يبا حتى بأن يدفع نصائحهم عنه بطرف أصبمه

واثقل الشيخ عبد الباسط فجأة الى متظرف يطالع الصحف
ويفتش المقامى ويتهمك بشيوخه الأعلام ، حتى زجاجة العطر
التي لمحا في أحد الحوانيت ظل يقتصد ثمنها واشتراها ، والساعة
والتدبيل الحريري والحذاء اللامع ... كان ذلك كله في سبيل أن
يحوز رضا تلك الفتاة اللعوب التي لا تعرف من الدنيا سوى الفتاة
وكان الشيخ عبد الباسط يرى في منزل السيد كل مرة
أصنافا من الشبان يفدون على الدار في أزواء خليمة ، حاسري

قالها بلهجة حاكم متفطرس لخادم عنده . ولم يكن الشيخ
عبد الباسط يتوقع هذه الخشونة ، أمام زملائه على الأقل ، فأخنى
خجله في سماله وسلم إلى البستاني خطاب والده إلى سعادة البك ..
وعاد البستاني يقول له باللهجة الأولى :

— أدخل ...

ثم ضرب البستاني الباب الحديدى وراءه بعنف وغضب .
فدخل الشيخ عبد الباسط وقلبه يترأ كض بين جنبيه ؛ ثم اقتيد
الى حجرة بهره فيها أنانها الفخم مما لم ير مثله إلا في الحوانيت
التي تاده للفرجة عليها زملاؤه . فأدرك لغوره في أى طريق ينفق
سيد القرية أمواله ..

وشهد في الحجرة وسادة ملقاة على الأرض فرام الجلوس
فوقها ، بيد أن الخادم الطيب أمهضه ليجلس على مقعد مريح . وهنا
ابتسم الشيخ عبد الباسط على رغم أنفه . . . ابتسم لأنه لم يكن
يقدر على البكاء ...

وبينا هو يجول يبصره فيما أثبت على الجدار من صور
وما حشد في الحجرة من نفائس ، إذا بصوت ناعم يصل إلى
أذنيه ، وإذا بفتاة هيفاء تدخل إلى الحجرة وهي تنفي ، فلما رأت
الشيخ الجالس أمامها تظاهرت بالفزع وصاحت :

— بردون يا ... يا أستاذ ! ثم واصلت الفتاة ...

وجاء الخادم يشرح للفتاة من يكون هذا الشيخ ؟ إنه نجح
وكيل والدها في ضيعة ، وقد جاء إلى القاهرة ليطلب العلم
فأرسله أبوه إلى سيده ليشمله برعايته ...

وتلطف الفتاة وصوبت بصرها إلى هذا المخلوق ، فإذا
هو شاب ممتلئ الجسم في لحية قصيرة كأنما صنعها يديه .
أما ذلك المخلوق فلم يكن يدرى أحد ماذا يمتلج في ذهنه من
الخواطر ، وقد غمره الموقف الشاذ بفيض من البلاهة ، فغفرته
ويق في صمته الجليل ، وقد غض الطرف وذكر نصيحة والده
له فلم يخالس الفتاة النظر سوى مرتين

وجاء السيد في جلباب حريري أزرق ، فهض الشيخ
عبد الباسط وقبل يده ثلاث مرات كما يصنع مع شيخه في
الدرس ، ثم وقف صامتا وقد أنساه الشيطان الكلمات النخمة

ذلك فراح يفرض وجوده في المجلس ويصمر خده للجالسين والجالسات . . .

واقرب يوم الزواج ولم يكلف الشيخ عبد الباسط أن يدفع شيئاً وزاد أهل المنزل في الحفاوة به والترحيب فكان الذي يشغله أنه يتزوج ووالده لا يعلم ، ولكن ماذا بهم والفتاة جميلة ووالدها سيد القرية . .

وفي اليوم الواعد كان رب المنزل غائباً ، ومن الانصاف أن نقول إنه لا يعرف من هذا الموضوع شيئاً ؛ غير أن الشيخ عبد الباسط لم يكن يهجمه ذلك ، فقد آمن بأن الرجل يعلم دون شك ولم يقاتمه في الأمر حتى لا يسمى إلى ذات نفسه ويخجله وأثيرت الدار وأقبل المدعوون ، ولم يجزئ الشيخ عبد الباسط على دعوة زملائه حتى لا يفسدوا عليه خياله ، واكتفى بأن زاد في الأناقة وفي التجميل ، وراح يحفظ قصائد النزل كلها ليسكب بها في أذن عروسه الحسناء . .

وتم عقد الزواج على يد مأذون حليق اللحية والشارب وإن كان يرتدى حبة وعمامة ، وكان هناك من يترنم بصوته والمدعوون من كل صنف يقصفون ويلهون . .

واقترح أحدهم على الشيخ عبد الباسط أن يشرب قدحاً قدمه إليه فلم يستسغ طعمه ، ثم أعطاه قدحاً آخر وقدحاً ثالثاً . . والجمع الصاحب يطلق الضحكات المخمورة من عقابها وهو ذاهل لا يعرف رأسه من قدميه . .

وأفردت له ولعروسه حجرة خاصة في المنزل الفخم ، ولأحسن دواراً في رأسه انكفاً إلى حجرتة وهبط إلى الفراش لا يقوى على النظر ثم أدركه النوم العميق . .

وفي الصباح وجد إلى جانبه عروساً من الخشب . . والجمع الحاشد يفرح حجرة نومه بالضحك ، ثم تكشفت له الحيلة شيئاً فشيئاً حتى عرف كل شيء . . .

عرف أن المأذون شاب من أصدقاء أهل الدار استمارجته وعمامته من قفيه المنزل ، وعرف أنه شرب في الأقداح الثلاثة خمرًا حرماً لله ؛ وأخيراً عرف أن عروسه من الخشب وليس لها طاقة على الفناء !

محمد علي فريد

الرؤوس حليق اللحية والشوارب ، وكان يسأل الخدم عنهم واحداً فواحداً ، ويعرف أنهم أصدقاء الأسرة فيسكت ، ويكلفه سكوته هذا لعنة أولئك الشبان في سره وذلك أضعف الأيمان

ولم يكن الشيخ عبد الباسط يجترى على التفكير في هذه الدنيا العجيبة التي يضمها منزل السيد ، وإن كان قد فكر مراراً في أنه أصبح مطلوباً ومرغوباً فيه ألم يقل له محمد بك ذات يوم :
— حصلت البركة بأستاذ !

كلمة لا يقولها السيد إلا لمن يحبه ويوده . ألم تصارحه الفتاة التي تفتى ذات مساء بأن دمه خفيف . ثم ضربته بيدها على وجهه ، وضرب الحبيب مثل أكل الزبيب ! ترى هل حان الوقت الذي يصارحهم فيه بما تضطرم به نفسه من رغبات !

وجاء ذلك الوقت فلم يقاومه الشيخ عبد الباسط برغبته رب الأسرة ، لأنه كان رغم كل شيء تيبب ويخجل . وكانت رغبته أن يتزوج بتلك الفتاة التي تفتى دائماً والتي لم يعرف اسمها بعد . وكثيراً ما تمثل هذا البدن الناعم البديع واستعاد ذكريات اسمه السيد ، فيسمه زملائه في القرية ين ويصرخ من هول ما يشتمل في صدره . . .

لم يقدر الفوارق الهائلة بينه وبينها ، ولا راحي مركزه كطالب علم فقير ، ولكنه أقنع نفسه بأن كل شيء يسوى بنفسه ، والمصادفات قد تكون في بعض الأحيان سبباً في أن يرتفع الرء من الترفة الحقيمة إلى القصر النيف

وبعد تفكير طويل أودع الشيخ عبد الباسط سره الخطير لدى أحد الخدم في المنزل ، فتضاحك الخادم وسكت ، وكان في سكوته ما حمل الشيخ عبد الباسط على أن يتأول ويستولد عدم استحالة الوصول إلى مبتناه

والظاهر أن الخادم أفضى إلى الفتيات بما قال الشيخ ، ولا ريب أنهن تضاحكن وعيثن بالفتاة التي وقع عليها اختياره ، ثم انقلب الموضوع إلى فكرة ضخمة . لذلك استقبل الشيخ عبد الباسط في اليوم التالي استقبالاً نفخاً ، وكانما كان يتوقع